مجلة بوابة الباحثين للدراسات والأبحاث
Researchers Gate Journal for Studies and Research
ISSN (Print): 3080-1354 ISSN (online): 3079-787X
Volume: 1, Issue: 2 2025

حجاجية الخطاب التأثيري التربوي في قصة موسى والخضر عليهما السلام

The Argumentative Nature of the Educational Influential Discourse in the Story of Moses and Al-Khidr (Peace Be Upon Them)

الباحث زوهير إروى: جامعة سيدي محمد بن عبد الله، الكلية المتعددة التخصصات، تازة، المغرب.

Researcher Zouhair Irwa: Sidi Mohamed Ben Abdellah University, Multidisciplinary Faculty, Taza, Morocco.

zouhir.iroua@gmail.com

الملخص

لا جدال في كون الأنبياء والرّسل من أفضل الخلائق فوق الأرض لِمَا تميزوا به من مكارم الأخلاق، وحُسن الفضائل، وجميل الصفات في التعامل مع أقوامهم من أجل إصلاح أحوالهم، وهدايتهم إلى اتباع طريق الرّشاد والصواب، فكانوا نعم المعلمين تربية وإرشادا وتوجيها، والقرآن الكريم حافل بمحاججات الأنبياء مع أقوامهم، وسنتوقف في هذا الصدد عند بعض الشواهد التي يغلب عليها الطابع التأثيري والتربوي في قصة موسى والخضر وفق مقاربة حجاجية تداولية.

سنسعى من خلال هذه الورقة إلى فحص الشواهد وتحليلها بأدوات وأساليب منهجية متعددة تتداخل فيها اللغة، والبلاغة، والمنطق، وغيرها من الآليات الحجاجية، والهدف من هذا التنوع يأتي انسجاما مع طبيعة النص القرآني المعجز بكلماته، وأساليبه، وجمال نظمه، ودلالة معانيه، وبلاغة تراكيبه، حيث إن التركيز على آلية بعينها لن يُسعفنا في بلوغ الهدف المقصود من وراء هذا البحث، لذلك اعتمدنا على آليات حجاجية متنوعة للكشف عن معاني الآيات، وفهم تأويلاتها؛ لأن النص القرآني خطاب تتنازعه العديد من المعارف لفك شفراته، وفهم مغاليقه.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، الخطاب، التأثير، التربية، القصة.

Abstract:

There is no doubt that the prophets and messengers are the best of creation on Earth due to the noble qualities they possessed, including high morals, virtues, and exemplary traits in dealing with their people to reform their conditions and guide them to the right path. They served as teachers, guides, and mentors, and the Quran is filled with examples that emphasize this role.

This study will focus on the debates between prophets and their people, analyzing their rhetorical and argumentative methods. Specifically, it will examine the story of Moses and Al-Khadir, peace be upon them, highlighting its rhetorical and educational influence through various methodological tools.

The research will analyze key Quranic passages, exploring their argumentative techniques, linguistic structures, and stylistic elements to uncover their meanings and interpretations. Since Quranic discourse incorporates multiple layers of knowledge, this study aims to decode its messages and understand its profound significance.

Keywords: Argumentation, Speech, Impact, Education, Story.

المقدمة

تكاد تنحصر غاية الخطابات الحجاجية في استمالة المتلقي وإقناعه، حيث إن المخاطب قبل أن يشرع في الحديث مع غيره ينتقي الآليات والأدوات اللغوية والبلاغية المناسبة بكل عناية ودقة، بغية التأثير فيه لتغيير موقفه ومعتقداته، ويعد القرآن الكريم من أبرز الخطابات الحجاجية بامتياز، جاء لإقناع الناس باتباع هذا الدين الجديد، وترك ما كانوا يعبدون من قبله، إنه خطاب يزخر بألوان حجاجية، وأساليب إقناعية هائلة، وتعتبر القصة من أهم الأساليب الموظفة في القرآن الكريم لتأدية أغراض حجاجية متنوعة.

ولما تعلّق الأمر بالاشتغال على النص القرآني كان لزاما علينا أن نستعين بكتب التفسير التي ستعيننا في الكشف عن مكنونات هذا الخطاب، وسبر أغواره لبيان حجاجية الخطاب التأثيري التربوي في بناء العلاقات بين الإنسان، ولتحقيق هذا المسعى سنسلك نهج التحليل والتفسير والإيضاح، مع الانفتاح على مناهج أخرى كلما دعت الضرورة.

وتجذر الإشارة أننا سنقتصر في عرضنا للموضوعات على الشواهد التي تتوافق مع طبيعة الموضوع، وفق تصور تكاملي شامل، بلاغيا ولغويا ومنطقيا (...)، واختيارنا للاشتغال على القصة القرآنية مقيد بضوابط عديدة تستدعيها طبيعة الموضوع؛ لأن القرآن الكريم يخاطب العقل والعاطفة معا، وهي غاية كل حجاج يروم التأثير والتهذيب، فالنص القرآني مصدر للتربية والإصلاح، والعمل به ضرورة تربوية سلوكية لا غناء عنها.

١- حجاجية الآليات اللغوية:

يزخر القرآن الكريم بالعديد من الآليات الحجاجية اللغوية بفضل تنوع مخاطَبيه، وتعدد موضوعاته، فهو خطاب حواري بامتياز يرمي إلى إحداث الاستمالة والإقناع، إذ لم يقتصر على طريقة محددة في إقامة حججه، وإنما اختلفت طرقه، وتنوعت أساليبه في عرضها، وتعتبر الآليات اللغوية في النص القرآني من أبرز الأدوات التي تحدث التأثير والإقناع، وأهمها الروابط والعوامل الحجاجية التي تُسهم في انسجام الخطاب واتساقه.

١-١- الروابط الحجاجية:

١-١-١- الرابط الحجاجي: (الفاء).

- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ (الكهف، الآية: ٦٠).

- قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ (الكهف، الآية: ٧٣).

أدى هذا الرابط في الآيتين السابقتين وظائف حجاجية عديدة أبرزها توجيه الخطاب وتنظيمه، فضلا عن الربط بين الحجج والنتائج، تفسيرا وتعليلا بغية خلق نوع من التناسب والتناسق بينهما، فقد ذكرت الفاء في الآية الأولى مرتين: الأولى تحمل معنى جواب الشرط للآية التي قبلها، حيث ربطت بين حجة (بلغ مجمع بينهما)، والنتيجة (نسيا حوتهما)، أما الثانية – الفاء – فهي للعطف على النتيجة السابقة، فجاءت الحجة (نسيا حوتهما)، بينما النتيجة هي (اتخذ سبيله في البحر سربا)، والعلاقة بين الحجة والنتيجة هي علاقة سببية، فنسيان الحوت كان سببا في اتخاذه – الحوت – سبيلا إلى البحر سربا.

أما في الآية الثانية فالرابط الحجاجي (الفاء) في كلمة (فقتله) تفيد التعقيب والترتيب، فجاء الكلام عن السفينة مجردا من الرابط الحجاجي (الفاء)، بينما الحديث عن الغلام جاء مقرونا برابط الفاء، (فجعل خرقها جزاء للشرط، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفا عليه...لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقب القتل لقاء الغلام) (الزمخشري، ١٤٠٧هـ، صفحة ٧٣٦) ، وبهذا يكون الرابط الحجاجي (الفاء) قد لعب دورا مهما في الربط بين الحجج والنتائج، وخلق الانسجام بين مختلف الحجج ودلالاتها، فضلا عن تنسيق الكلام، وتحقيق الاستمالة والإقناع.

١-١- ٢- الروابط الحجاجية: (حتى/ إذا/ لو).

- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ (الكهف، الآية: ٥٩).

- قال تعالى: ﴿لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (الكهف، الآية: ٦٩).

- قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ (الكهف، الآية: ٧٠).

- قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ (الكهف، الآية: ٧٣).

- قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ...فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الكهف، الآية: ٧٦).

يعتبر الرابط الحجاجي (حتى) من أهم الروابط التي يستعملها المتكلم لإدراج حجج قوية، يؤدي وظيفة الربط بين حجج ذات توجه واحد لخدمة نتيجة بعينها، والحجة التي ترد بعده تكون أكثر قوة من التي قبله، وكل كلام تضمن هذا الرابط الحجاجي لا يحتمل الإبطال أو التعارض (العزاوي، ٢٠٠٦م)، ففي الآية الأولى ربط الرابط الحجاجي (حتى) بين حجتين: الأولى (لا أبرح)، والثانية

(أبلغ مجمع البحرين)، من أجل بلوغ نتيجة ضمنية مفادها: (الالتقاء بالخضر عليه السلام)، ويمكن التمثيل لهذه العلاقة على الشكل الآتي:

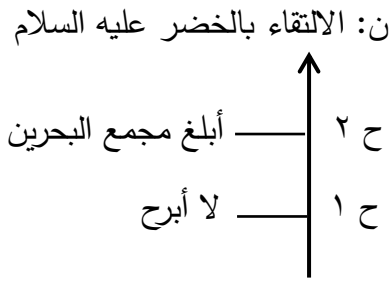

من خلال هذا السلم الحجاجي يمكن القول بأن الرابط الحجاجي (حتى) يفيد الجر؛ أي لا أبرح إلى أن أبلغ مجمع البحرين (على أن حتى أبلغ هو الخبر، فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير المتكلم، فانقلب الفعل عن لفظ الغائب إلى لفظ المتكلم، وهو وجه لطيف) (الزمخشري، ١٤٠٧هـ، صفحة ٧٣١)، ومن بين الدروس والعبر التربوية التي تقدمها هذه الآية، الإلحاح والإصرار في طلب العلم، فشوق موسى ورغبته في طلب العلم هو ما جعله يتحمل عناء السفر ومشقته، حتى وإن اقتضى الحال أن يقضي في ذلك حُقُبًا من الزمن، فالرابط الحجاجي (حتى) حقّق غاية سببية في التقاء موسى بالخضر، ولعب دورا فعّالا في تحقيق مقصدية الخطاب وانسجامه.

وفي الآية الثانية جاء الرابط (حتى) للربط بين حجتين: الأولى (لا تسألني عن شيء)، والثانية (أحدث لك منه ذكرا)، وذلك للوصول إلى نتيجة مفادها: (التريث والصبر، واجتناب العجلة في طلب الأمر والسؤال)، ويمكن توضيح هذه العلاقة في السلم الحجاجي الآتي:

ن: التريث والصبر، واجتناب العجلة في طلب الأمر والسؤال

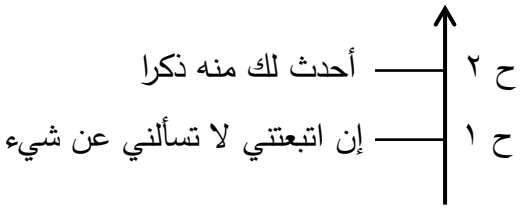

فالحجة الثانية أقوى من الأولى؛ لأنها جاءت كجواب لقبول طلب موسى، وتنبيهه في الوقت نفسه، فجاء الرابط الحجاجي فاصلا لدعم وتقوية النتيجة؛ لأن الخضر يعلم أن موسى لن يقدر على مصاحبته طويلا، ولن يطيق أفعاله التي تخالف عقيدته، فالرابط الحجاجي ((حتى) هنا للغاية، يعنى إلى أن (أحدث لك منه ذكرا) أي؛ إلى أن أذكر لك السبب، وهذا توجيه من معلم لمن يتعلم منه، ألا يتعجّل في الرّد على معلمه، بل ينتظر حتى يحدث له بذلك ذكرا، وهذا من آداب المتعلم ألا يتعجّل في الرّد حتى يتبيّن الأمر) (العثيمين، ١٤٢٣هـ، صفحة ١١٤).

أما في الآية الثالثة فقد ربط الرابط الحجاجي (حتى) بين حجة (فانطلقا)، وحجة (ركبا في السفينة فخرقها) لخدمة نتيجة واحدة تربط بين الحجتين مضمونها: (عندما انطلقا وركبا في السفينة خرقها)، فأدى بذلك الرابط الحجاجي دورا فعّالا في تأكيد وتقوية الحجة الثانية، ولتوضيح هذه العلاقة أكثر نستعين بالسلم الحجاجي الآتي:

ن: عندما انطلقا وركبا في السفينة خرقها

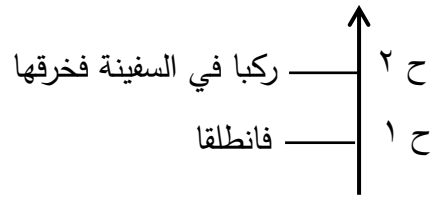

رجّح بعض العلماء أن يكون الرابط (حتى) هنا للغاية؛ بمعنى إلى غاية ركوبهما في السفينة، والكلام إيجاز دلت عليه عبارة: إذا ركبا في السفينة، والأصل في الكلام: حتى استأجرا السفينة وركبوا فيها، وعندما ركباها خرقها الخضر (ابن عاشور، ١٩٨٤م)، ولمّا كانت نتيجة الحجتين السابقتين هي الخرق، أخلف موسى وعده؛ لأنه لاحظ شيئا يفوق طاقته، فقال: (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا)، فوظّف ثلاث مؤكدات (اللام + قد + القسم المحذوف بعد اللام) للدلالة على عظمة الفعل المرتكب من الخضر، والرابط الحجاجي (حتى) زاد من بلاغة وإقرار الحجة الثانية المؤدية لنتيجة الخرق، فعندما يتعلق الأمر بالخوف تتعدد أدوات التوكيد في الخطاب كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات، الآية: ٥٨)، فعندما تعلّق الأمر بالرزّق والخوف من المستقبل، أكّد الله الخطاب بأكثر من أداة للدلالة على أن الأرزاق بيده – سبحانه وتعالى – فلا حاجة لنا للخوف من ذلك.

لقد بدأت الآية الرابعة بحرف استئناف للدلالة على قبول الخضر لعذر موسى بعد الحجاج الذي دار بينهما، وهو حجاج تأثيري تربوي، حيث اعتذر موسى عن فعله المرتبط بالنسيان، فوظف أسلوب النهي الدال على التعطّف والالتماس، لأنه قد يحاسبه على فعله الناتج عن النسيان فيؤاخذه كمن ليس أهلا للمصاحبة (ابن عاشور، ١٩٨٤م)، وقد ربط الرابط الحجاجي (حتى) بين حجتي: (انطلقا)، و(لقيا غلاما) بغية الوصول إلى نتيجة مفادها: (فقتله)، فأفاد الرابط الحجاجي معنى الترتيب والتدرّج في الحجج من أجل بلوغ الغاية المقصودة، ومن أجل توضيح هذا المشهد الحجاجي يحسن بنا تبسيطه في الترسيمة الآتية:

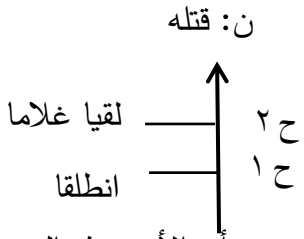

نلاحظ أن موسى أخلف وعده مرة أخرى، غير أن الأمر هذه المرة لا يرتبط بالنسيان، بل هو قاصد لكون فعل القتل أمر لا يمكن تداركه، لذلك أنكره موسى أكثر من الفعل الأول؛ لأن فعل القتل أسرع وأخطر من فعل خرق السفينة، فجاء الرابط الحجاجي (حتى) – بالإضافة إلى ما ذكر – ليفيد الغاية والجر، ففسّر لنا العلاقة الحجاجية بين الأقوال.

ولمّا حاجج موسى عليه السلام صاحبه بنبرة شديدة جاء اللّوم أشد فقال الخضر: (ألم أقل لك) عكس الخطاب الأول: (ألم أقل إنّك)؛ فجاء جواب موسى لمّا علم أنه لا عذر له بعد حين: (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا)، وهذا دليل على احترام موسى للخضر، حيث اعتبره أعلى منه شأنا ومكانة، لذلك لم يقل: (إن سألتك عن شيء بعدها فلن أصاحبك)، فكان الحجاج بينهما حجاجا تأثيريا تربويا عبّرت عنه الروابط والأساليب المستعملة في التخاطب بين الاثنين.

وإذا ما عرجنا نحو الآية الخامسة وجدناها تعجّ بالروابط والأساليب الحجاجية التي تؤدي أدوارا تأثيرية وتربوية متعددة، وهذه الآية معطوفة على ما قبلها من الآيات للدلالة على غاية واحدة وهي طلب العلم، وما يدل على ذلك توظيف الرابط الحجاجي (حتى) الدال على الغاية والجر، فأدى بذلك دورا مهما في ترتيب الحجج وتقديمها، فالحجة الأولى هي (انطلقا)، والثانية (أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما)، وجاءت الحجة الثانية أقوى حجاجيا من الأولى بفضل الرابط الحجاجي

(حتى) الذي زاد من قوتها من أجل بلوغ نتيجة واحدة ربطت بين الحجتين ألا وهي (فانطلقا إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما)، فجاء المشهد الحجاجي على شكل السلم الآتي:

ن: فاطلقا إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما (الامتناع)

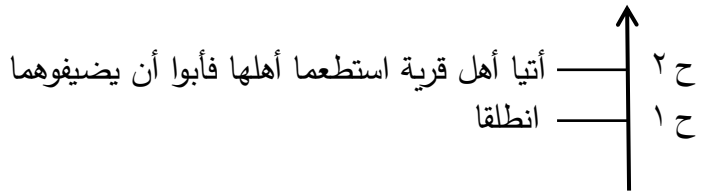

والملاحظ في الشواهد الثلاثة الأخيرة أن الرابط الحجاجي (حتى) جاء مقرونا برابط حجاجي آخر لا يقل عنه أهمية وهو الرابط (إذا) الذي أسهم هو الآخر في انسجام النص واتساقه، حيث عمل على إظهار بعض النتائج وتقويتها بهدف الاستمالة والإقناع، فربط بين فعل الشرط باعتباره حجة، وبين جوابه الذي مثل نتيجتها، وهذا الاجتماع أضاف للخطاب طاقة حجاجية مهمة، فجاز لنا أن نقول إن تساند وتعاضد هذين الرابطين إنما جاء لخدمة النتيجة والغاية المرجوة من الخطاب.

ولما كان الرابط الحجاجي (حتى) لا يقبل التعارض والإبطال على حد تعبير أبي بكر العزاوي، جاء الخطاب القرآني في الآيات السابقة مقرونا بالرابط (إذا) دون فاصل بينهما، وهذا الرابط يحمل في ذاته معاني التأييد والإبطال، ففتح باب التأويل والاحتمال على انتهاء صحبة الخضر لموسى، وهو الأمر الذي تأتى في الآية الأخيرة من الشواهد السابقة، إذ بعد امتناع أهل القرية عن ضيافتهما أكملا سيرهما حتى وجدا جدارا على وشك الانقضاض فأقامه، فجاء ردّ موسى على هذا المشهد بالرابط الحجاجي (لو) الدال على الامتناع، ليحمل شحنة حجاجية تتناسب مع فعل أهل القرية، فضلا عن كون دلالة الامتناع مناسبة لانتهاء صحبة موسى للخضر، خاصة بعدما وضع حدّا لأعذاره بنفسه في الخطاب السابق.

١-٢- العوامل الحجاجية:

إذا كانت وظيفة الروابط الحجاجية تنحصر في الربط بين الأقوال والحجج، وتسند إليها دورا خاصا ضمن استراتيجية حجاجية عامة، فإن العوامل الحجاجية لا تقوم على الربط بين هذه المتغيرات، وإنما تحاول حصر وتوجيه الإمكانات الحجاجية للقول (العزاوي، ٢٠٠٦م)، ومن أبرز العوامل الحجاجية التي ساعدت في الكشف عن المعنى، وبلوغ المقصود في قصة موسى والخضر نذكر:

١-٢-١- العامل الحجاجي: (إذ).

- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (الكهف، الآية: ٥٩).

إن المتأمل في الآيات السابقة يدرك أن الحجاج القائم بين موسى والخضر هو حجاج تأثيري تربوي مؤسس للواقع، يجمع بين التأدّب والتعليم، والتلطّف في القول، والاعتذار، والتوجيه، وغيرها من أساليب الاستمالة والإقناع، فإذا توقفنا عند هذه الآية سنجدها تبدأ بالعامل الحجاجي (إذ) المصاحب للقول، فعبّر به عن عنصر مفاجئ للدلالة على الربط بين ما سيأتي من القول وما مضى؛ أي الانتقال من حالة إلى أخرى بكيفية تراتبية، فعطف جملة (وإذ قال موسى لفتاه) على جملة سابقة وهي: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لأدم)، فتم عطف قصة على أخرى، وتقدير الكلام: واذكر قصة موسى والأحداث المرتبطة بها، فناسب الفعل المقدر «اذكر» هذا المشهد، لأن القصتين معا تحملان موعظة وذكرى (ابن عاشور، ١٩٨٤م)، فجاء العامل الحجاجي (إذ) مشحونا بطاقة حجاجية فجائية تميل إليها العواطف، ويمكن توضيح هذا الأمر على النحو الآتي:

العامل الحجاجي (إذ) ← فعل القول الدال على الماضي + لا أبرح

١-٢-٢- العامل الحجاجي: (إنْ).

- قال تعالى: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (الكهف، الآية: ٦٩).

ورد العامل الحجاجي (إن) في هذا المشهد الحجاجي بصيغة الشرط، فأضفى على الكلام شحنة حجاجية منحت للملفوظات التي ذكرت بعهده توجيها حجاجيا بالدعوة إلى الصبر من أجل الوصول إلى نتيجة مفادها: (التحلي بالصبر واجتناب العجلة)، فجاء العامل الحجاجي (إن) ليرسم الطريق للمخاطَب، ويحدد له معالمه داخل الخطاب، وتجدر الإشارة أن بلوغ النتيجة رهين بالمرور عبر الحجج، فجاء خطاب الخضر بإلزام موسى باختيار واحد من بين الاختيارات التي دارت في ذهنه، وهو الكف عن السؤال، فتم التعبير عن هذا المشهد بالرابط الحجاجي (إن) الذي أدى وظيفة الإبلاغ والتواصل من أجل التأثير والإقناع، ويمكن تلخيص البنية الحجاجية لهذه الآية على الشكل الآتي:

فإن ← اتبعتني ← فلا تسألني عن شيء

(الأداة) الحجة النتيجة

(جملة الشرط) (جواب الشرط)

١-٢-٣- العاملان الحجاجيان: (أما/ ما).

- قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ (الكهف، الآية: ٧٨).

- قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (الكهف، الآية: ٧٩).

- قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنز لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف، الآية: ٨١).

يتبين من خلال هذه الآيات أن العامل الحجاجي (أما) ورد في سياق تفسيري حجاجي للكشف عما يجهله موسى، فجاء هذا العامل مصاحبا لعرض الخطاب، وبعدها يُفسّر الخضر كل فعل ويبرّره بفاء التعقيب، ثم ختم المشهد الحجاجي بنتيجة: (وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا)، فجاءت الفاء كرابط ملازم لأفعال الخضر وإرادته، حيث اقترنت الآية الأولى بفعل (فأردت) الدال على قوة الفعل، مما استلزم تنفيد فعل الخرق، أما المشهد الحجاجي الثاني فهو مختلف في الحدث؛ فالغلام سيرهق والديه طول حياتهما، لذلك استلزم الأمر الحذر من هذا الفعل، فجاء الخوف في كلمة (فخشينا) كرابط حجاجي ضمني، في حين أن المشهد الحجاجي الثالث جاء كفعل لحماية مستقبل الغلامين عن طريق بناء الجدار، ويمكن تبسيط هذه المشاهد الحجاجية في الترسيمة الآتية:

- **العامل الحجاجي ← السفينة ←الرابط الحجاجي + فعل ماض ←الرابط الحجاجي + النتيجة**
(أما) (الفاء) (كانت لمساكين) (الفاء) (أردت أن أعيبها)

- **العامل الحجاجي ← الغلام ←الرابط الحجاجي+ فعل ماض ←الرابط الحجاجي + النتيجة**
(أما) (الفاء) (كان أبواه مؤمنين) (الفاء) (خشينا أن يرهقهما)

- **العامل الحجاجي ← الجدار←الرابط الحجاجي+ فعل ماض ← الرابط الحجاجي + النتيجة**
(أما) (الفاء) (كان لغلامين) (الفاء) (أراد ربّك أن يبلغا أشدّهما)

وكانت نتيجة هذه المشاهد الحجاجية: (وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) جوابا على أسئلة موسى الذي خفي عنه هذا العلم، فجاء التفسير والتوضيح مشحونا بطاقة حجاجية

وفّرها العامل الحجاجي (أما) باعتباره حرف شرط للتفصيل والتوكيد، بدليل لزوم فاء الجزاء بعدها (ابن هشام، ١٩٨٥)، حيث مهّد هذا العامل الحجاجي مع الأقوال التي بعده للنتيجة النهائية التي لا تقبل الشك والتكذيب، ولتوضيح هذا الأمر يمكننا الاستعانة بالخطاطة الآتية:

العامل الحجاجي (أما) + الأقوال ← الرابط الحجاجي (فاء الجزاء) ← النتيجة النهائية (وحي من الله)

يتبين من خلال هذا العرض أن أغلب العوامل الحجاجية تتسم بحصر وتقييد الاحتمالات التأويلية للملفوظ، وذلك بتوجيهه نحو غاية حجاجية محددة من شأنها استمالة المتلقي وإقناعه، وهنا تكمن وظيفتها الحجاجية، حيث تقوده – المتلقي – نحو النتيجة بعينها، والحد من اللّبس وانتشار الغموض.

أما العامل الحجاجي (ما) الذي تصدّر النتيجة النهائية ومنحها قوة حجاجية لتحقيق الاستمالة والإقناع فقد جاء لينفي عن الخضر تلك الأفعال من تلقاء نفسه، وإنما كان ذلك بأمر من الله، وفي هذا السياق يقول الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): (وإنما جيء بالإجمال قبل ظهور البرهان وجيء بالتفصيل بعد ظهوره على طريقة الحجاج وهو إجمال الدعوى وتفصيل النتيجة لأن الدعوى قبل البرهان قد يتطرقها شك السامع بأن يحملها على المبالغة ونحوها) (ابن عاشور، ١٩٨٤م، صفحة ٤١٨)، حيث تضمن قول الخضر بعدا حجاجيا أفصح عنه العامل (ما) الذي وجه سياق الملفوظ صوب نتيجة بعينها، وإقصاء ما دونها من التأويلات المستنتجة من الخطاب.

٢- حجاجية الآليات البلاغية:

تلعب الآليات البلاغية دورا مهما في اتساق النص القرآني وانسجامه، بوصفها وسائل وأدوات حجاجية تعمل على توجيه الخطاب وتوضيحه بغية إقناع المتلقي واستمالته، وهي آليات تهتم بصور

الكلام بصيغ مختلفة كالمجاز، والاستعارة، والتمثيل، والكناية (...) وغيرها من ألوان البيان والبديع التي تخاطب مشاعر الإنسان وعواطفه لنقل المقصود واستجلائه في صورة حسية مؤثرة.

٢-١- حجاجية الاستعارة:

- قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ (الكهف، الآية: ٧٧).

في الآية الكريمة استعارة، حيث استعير فعل الإرادة (يريد) للدلالة على الاقتراب من السقوط، فشبّه الجدار بالإنسان في الإرادة، كما يمكن اعتبارها مجازا؛ لأنه عندما تُسند أفعال بني الإنسان إلى الكائنات غير البشرية يصبح ذلك مجازا، جاء في "محاسن التأويل": (والإرادة مستعارة للمداناة والمشارفة لما فيها من الميل. استعارة تصريحية أو مكنية وتخييلية، أو هي مجاز لغويّ مرسل بعلاقة سبب الإرادة، لقرب الوقوع) (القاسمي، ١٤١٨هـ، صفحة ٥١)، فالتعبير الاستعاري في هذه الآية اختزل طاقة حجاجية مهمة، جعل المستوى الحجاجي فيها عالٍ في القراءة التأويلية للخطاب، وجدير بالذكر أن الاستعارة من أكثر الأساليب البلاغية تأثيرا في نفسية القارئ المؤول، لذلك ينبغي أن تتظافر جهوده – المؤول – لملء الفراغات الناتجة عن الكلام المجازي، والانتقال بالكلمة من معناها الحقيقي إلى استعمالها في السياق اللغوي، وبهذا نستطيع القول بأن الاستعمال المجازي في القول الحجاجي (يريد أن ينقض) زاد من قوة الإثبات، وتجسيد المعنى وتصويره في النفوس عن طريق المقارنة، حيث شبّه الجدار بكائن حي عمّر أمدا طويلا من الزمن فأشرف على الموت.

لقد أضفت الاستعارة على الخطاب نوعا من الشخصنة، وزادته إقناعا وتأثيرا، وجعلها الجماد بمثابة كائن ناطق في حد ذاته حجاج جمالي ماتع يثير الدهشة والمتعة في نفسية المتلقي، فهي – الاستعارة –من الآليات الحجاجية التي تُعبّد الطريق للتصرف في التعبير عن الأحاسيس، وقد

وصلت بالنص القرآني حدّ الإعجاز، إذ لا يمكن أن تجدها بهذه القوة البلاغة إلا في الخطاب القرآني، الذي يعتبر مالك الاستعارات.

٢-٢- حجاجية الكناية والتعريض:

- قال تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الكهف، الآية: ٧٦).

في الآية كناية بتعريض عن حالة الجوع التي يعرض من خلالها موسى للخضر بأخذ الأجر مقابل إقامة الجدار الذي كان على وشك الانقضاض، وما يؤكد أن الآية تضمنت كناية تعريضية كونهما أقامه معا، فلا يستقيم أن يكون موسى مرافقا للخضر دون مساعدته له في إقامة الجدار، والآية الكريمة تصور مشهدا حجاجيا فيه كناية بتعريض عن المشاركة في الأجر، لذلك حقّ لموسى المطالبة به – الأجر– عن طريق الكناية تأدّبا مع معلمه، واحتراما له.

يستعمل أسلوب الكناية والتعريض في غالب الأحيان للتعبير عن المقابح والمساوئ بما تقبله الآذان وتسيغه، انسجاما مع لؤم أهل القرية الشنيع، غير أننا نلمس هذه المرة في خطاب موسى بعضا من الهدوء والهدنة عكس ما سبق؛ لأن المقام هنا لا يرتبط بالخوف بقدر ما يرتبط بنوع من الإصلاح، وفعل الخير، لذلك قيّد موسى خطابه برغبة الخضر فقال: (لو شئت لاتخذت عليه أجرا)، ولم يقل: (لو اتخذت عليه أجرا)، أو (أأقمت الجدار بدون أجر) على وجه الالزام، فجاء الرابط الحجاجي (لو) مشحونا بطاقة حجاجية للدلالة على تقييد موسى للخطاب، وفسّر نجم الدين الطوفي (ت ٧١٦ هـ) الآية الكريمة بقوله: (هذا تعريض من موسى بالاعتراض والإنكار؛ إذ كان قد التزم له تركه وألا يصاحبه إن عاوده) (الطوفي، ٢٠٠٢م، صفحة ٤٣١)، والتنكير في كلمة (أجرا) اختزل طاقة حجاجية تعجّ بألوان من التلطّف والتأدّب في الخطاب؛ كأنه يقصد أجرا أنت تحدّده، وبهذا نفهم أن

الكناية أسلوب مهم من أساليب الاحتجاج لعرض القضايا والدعاوى، تؤثر في العقول وتستميل القلوب، وكل من توقف عند الأسلوب الكنائي في النسق القرآني سيجده يفوق الطاقة البشرية في نظمه وبلاغته.

٢-٣- حجاجية التكرار:

- قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ (الكهف، الآية: ٧٠).

- قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ (الكهف، الآية: ٧٣).

- قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ (الكهف، الآية: ٧٦).

لقد تكرر فعل الانطلاق (فانطلقا) في هذا المشهد الحجاجي ثلاث مرات للدلالة على أهمية أحداث الرحلة وتسلسلها، واقتراب لحظة الفراق، فالتكرار هنا أدى دورا حجاجيا فعّالا تجلى في تنشيط ذاكرة موسى وتنبيهه على اجتناب السؤال، بل وإبقائه يقظا وحذرا جرّاء ما يقوم به الخضر من أفعال، فتكرار اللفظ في الخطاب يدفع المخاطب إلى العودة إلى ما سبق أن تلقّاه وطرق مسمعه (الزماني، ٢٠٢٠م)، وقد تكرر هذا الفعل – الانطلاق – ثلاث مرات في مواضع متقاربة رغم قلة وروده في القرآن الكريم، حيث نجده يوظف في مخاطبة الكفار كقوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ، انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (المرسلات، الآيتان: ٢٩ – ٣٠)، وهو خطاب موجه للمكذبين بيوم الحشر، كما يوظف كذلك في السعي نحو أمر عظيم أو مخفي كقوله تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ (القلم، الآية: ٢٣)؛ بمعنى يخفون ويسرّون كلامهم حتى لا يعلمه أحد،

وهذا يتناسب مع كتمان الخضر لأفعاله، وعدم الرغبة في الإفصاح عنها في حينها، وهذا يؤكد أن للتكرار جملة من الوظائف الحجاجية أهمها توكيد الكلام وإقراره في ذهن المخاطب، بالإضافة إلى دفعه نحو تغيير سلوكه، والكف عن الفعل في الحين، فهو – التكرار– وسيلة جمالية تستهوي القلوب، وتحرك العواطف.

ومن بلاغة الحجاج التأثيري التربوي في المشهد السابق تكرار كلمة (أهل) والتصريح بها، فجاء التكرار لغرض التأكيد على سوء أخلاقهم، وفساد مروءتهم لعدم تنفيد طلب رجلين صالحين، كما أن النص القرآني عدل عن استعمال كلمة (استطعماهم) إلى (استطعما أهلها) للدلالة على التحقير، فجيء باسم ظاهر بدل الضمير لتأكيد وصف هؤلاء بالشح والبخل، فجملة (استطعما أهلها) وصف للقرية، وليس المقصود من ذلك وصف أهل القرية كلها (الألوسي، ١٤١٥هـ)؛ لأنه لا يمكن أن نتصور مرورهما – موسى والخضر– على أهل القرية كلها، ولما كان الأمر كذلك تم العدول عن القول: (حتى إذا أتيا قرية) لما فيه من تكلف، أما قوله: (استطعما أهلها) فيه احتمال الاستطعام للبعض فقط.

الخاتمة:

ونحن إذ نصل إلى نهاية هذه الورقة الموسومة بـ "حجاجية الخطاب التأثيري التربوي في قصة موسى والخضر عليهما السلام"، والتي حاولنا من خلالها أن نكشف عن دور هذا اللون الحجاجي في فهم النص القرآني، لابد أن نرصد بعض النتائج التي توصل إليها البحث، والتي تتمثل في الآتي:

– جاءت قصة موسى والخضر مشحونة بالعديد من الفوائد والحكم التي من شأنها أن تؤثر في تنوير العقول، وتهذيب النفوس.

– تضمنت القصة مجموعة من الدروس والعبر التربوية التي تتلخص في التحلي بالصبر، والتواضع، والطاعة، والسعي إلى طلب العلم، والتأدب في الحوار، وتقديم الاعتذار (...).

– كان للروابط والعوامل الحجاجية الأثر البالغ في ترتيب الحجج، وتوجيه الخطاب نحو التسليم بالنتيجة، فقد لخّصت جلّ الإمكانات الحجاجية وقيّدت طاقاتها خدمة لانسجام النص القرآني واتساقه.

– لم تقتصر وظيفة هذه الروابط والعوامل الحجاجية في الربط بين الأقوال والحجج، بل أسهمت في تحقيق الوظيفة التأثيرية والإقناعية للخطاب.

– أسهمت الآليات البلاغية من قبيل الاستعارة والكناية والتكرار (...) في إبراز القيمة الجمالية، والكفاءة الإقناعية لإثبات معاني النص القرآني وتأكيدها.

وحسبنا من خلال هذه الدراسة أننا قد لفتنا الانتباه إلى بعض المسائل والإشكالات التربوية التي قد تدور في مخيلة كل قارئ ومؤول للخطاب القرآني، ويكفينا شرفا في هذا الصدد أننا اشتغلنا على النص القرآني.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش.

١- ابن عاشور، محمد الطاهر (ت ١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب الجديد)، الدار التونسية للنشر، تونس، (د. ط)، ١٩٨٤م.

٢- ابن هشام، أبو محمد جمال الدين، (ت ٧٦١هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر - دمشق، ط ٦، ١٩٨٥م.

٣- الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (ت ١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.

٤- الزمخشري، جار الله (ت ٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي- بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

٥- الطوفي، نجم الدين (ت ٧٢٦هـ)، الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، تحقيق أبو عاصم حسن بن عباس بن قطب، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٦- العزاوي، أبو بكر، اللغة والحجاج،، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط ١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.

٧- القاسمي، محمد جمال الدين (ت ١٣٣٢هـ)، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ.

٨- الزماني، كمال، بلاغة الحجاج نماذج تطبيقية، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط ١، ٢٠٢٠م.

٩- العثيمين، محمد (ت ١٤٢١هـ)، تفسير العثيمين: الكهف، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٢٣هـ.